التفاعل الحضاري في ألف ليلة وليلة

(حكاية الملك النعمان نموذجًا)

أ.د. عبد الرحيم الكردي

أستاذ النقد والأدب الحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة قناة السويس

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة التفاعل الحضاري في الف ليلة وليلة ، من خلال دراسة الصراع بين الحضارتين الإسلامية والأوربية ، كما تصوره حكاية الملك النعمان ، وتعد هذه الحكاية أطول حكايات ألف ليلة وليلة على الإطلاق ، لأنها تشغل مائة ليلة وليلة .

ويقوم بناء الحكاية على ثلاثة أجيال مثل روايات الأجيال المعاصرة، جيل الأجداد ثم جيل الأبناء ثم جيل الأحفاد ، والأساس الذي يفجر الصراع في الحكاية هو الهوية الثقافية بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية والدولة الرومانية وقد انتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- أن هذه الحكاية قد أضيفت إلى ألف ليلة في آواخر الدولة الفاطمية أي في نهاية القرن الخامس أو في بداية القرن السادس الهجري .

٢- أن الحكاية تصور الرؤية الإسلامية المتسامحة بل المتصالحة مع الآخر .

٣- أن الحكاية تتميز ببنية ملحمية محكمة وأسلوب شاعري يمكن مقارنته بأسلوب هوميروس

في الإلياذة .

الكلمات المفتاحية:

ألف ليلة وليلة ، الملك النعمان ، التفاعل الحضاري ، الملحمة.

Abstract:

This paper aims to study the cultural interaction in the Arabian nights by studying the conflict between the Islamic and European civilizations by describe the story of King Al-Nu'man. This story is the longest story of the Arabian nights because it occupies 100 and one nights.

The story is based on three generations, such as the contemporary novels, the generation of the forefathers, the generation of children and the generation of grandchildren. The basis for the conflict is the cultural identity between the Islamic state, the Byzantine state and the Roman state.

1-This story was added to Arabian nights in the late Fatimid state or the end of the fifth century.

2- the story depicting the vision of Islam tolerant and even reconciled with the other.

3-The story is characterized by a structure of epic and poetic style can be compared to the style of Homer.

keywords:

Thousand and One Nights, King Noman, Civilizational Interaction, Epic.

تعد ألف ليلة أكبر النماذج السردية على التفاعل الحضاري في العالم، إذ تجمعت في ألف ليلة وليلة رواسب من حضارات العالم القديم ومن الحضارات المتوالية في العصور الإسلامية الزاهرة والمظلمة معًا ، فقد احتوت على حكايات وشخصيات وأحداث على أنها وقعت في فارس والهند والصين والعراق والشام ومصر وبيزنطة، منذ أقدم العصور حتى العصر المملوكي في مصر، وتضمنت مستوياتها السردية أنساقًا ثقافية وأيديولوجية وحضارية متنوعة ظاهرة ومضمرة، يبدو كل ذلك من خلال لغة السرد ورؤى الرواة والحكايات الطريفة عن عادات الشعوب وتقاليدها وملامح الشخصيات وأفعالها وأفكارها وأحلامها وأوهامها وخيالاتها وعقائدها ومصائرها، لذلك كانت ألف ليلة وليلة موضوعًا مثاليًا لدراسة التفاعل بين الحضارات والثقافات المختلفة ،من خلال تجلي هذا التفاعل في نص أدبي شائق وجميل.

والمنهج الملائم لدراسة مثل هذا الموضوع هو النقد الثقافي، لأن هذا المنهج لا يقف عند حدود البلاغة الشكلية للأعمال الأدبية، ولا يكتفي بالوصف السلبي لهياكل التراكيب اللغوية والأسلوبية لهذه الأعمال، بل ينظر إلى العمل الأدبي باعتباره نتاجًا ثقافيًا معبرًا عن الفكر والثقافة وفي الوقت نفسه فاعلًا فيها.

وتعد حكاية الملك النعمان من أكبر الحكايات في ألف ليلة وليلة، وأكثرها تماسكًا، إلى درجة يمكن النظر إليها على أنها ملحمة أو سيرة شعبية مستقلة، فهي تشغل مئة ليلة وليلة ، إذ تبدأ من الليلة الربعة والأربعين ولا تنتهي إلا في آخر الليلة الخامسة والأربعين بعد المئة ،وهي ترسم صورة للصراع العسكري والثقافي المحتدم بين الحضارة الإسلامية الشرقية والحضارة المسيحية الغربية بفرعيها البيزنطي والروماني، من خلال توالي ثلاثة أجيال

لأسرة عربية حاكمة في بغداد، الجيل الأول يتصدره الملك "عمر النعمان"رب هذه الأسرة، والجيل الثاني يتصدرهولداه "شركان" و"ضوء المكان " أما الجيل الثالث فيتصدره حفيده المسمى "كان ما كان".

تتناول هذه الحكاية الملحمية أحداثًا شبه تاريخية كأنها تقع في البلاد الإسلامية والأوروبية في القرون الوسطى إبان الحروب التي بدأت بين الشرق والغرب كما تقول الحكاية قبل خلافة عبد الملك بن مروان لكنها في الوقت نفسه ترسم الحكاية صورة فنية لطبيعة هذا الصراع الدائر منذ ذلك الحن بين الحضارتين العريقتين الإسلامية والأوروبية، صورة تتجلى فيها ملامح هذا الصراع الدائم ليس في الماضي فحسب، بل في الوقت الحاضر وربما في المستقبل أيضًا، وهذه ميزة الأدب لأنه ينتزع الوقائع من سياقاتها الوقتية والمحلية الزائلة ويسلكها في دائرة الديمومة التي تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية، ويحولها إلى أسطورة أو صورة فنية ثقافية أو استعارة ثقافية تشع بالدلالات والمعاني المتجددة.

تبدأ الحكاية بداية تقليدية مثل سائر حكايات ألف ليلة وليلة بقول شهرزاد لشهريار في الليلة الرابعة والأربعين:"بلغني أيها الملك السعيد أنه كان بمدينة دمشق قبل خلافة عبد الملك بن مروان ملك يقال له عمر النعمان" [الليالي ص١٣٩]، ثم تضخم الراوية شخصية عمر النعمان عن طريق استخدام المبالغة في الوصف الملحمي الذي يشبه وصف هوميروس لأبطال الإلياذة أو وصف راوي السير الشعبية لعنترة وأبي زيد الهلالي وذات الهمة،لكنه وصف لملك من ملوك الإسلام وليس لمجرد بطل، فهو يجمع بين القوة الجسدية والسلطة المعنوية والبأس الشديد، تقول شهرزاد: "كان من الجبابرة

الكبار، قد قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة، وكان لا يصطلى له بنار، ولا يجاريه أحد في مضمار، وإذا غضب يخرج من منخريه لهيب النار"[ص١٣٩] هذه هي الصورة التي رسمها الخيال الشعبي للحاكم المستبد العادل القوي،ثم تتطرق شهرزاد إلى ذكر نفوذه العسكري والسياسي والاقتصادي غير المحدود فتقول:" وكان قد ملك جميع الأقطار، ونفذ حكمه في سائر القرى والأمصار ، وأطاع الله له جميع العباد ، ووصلت عساكره إلى أقصى البلاد، ودخل في حكمه المشرق والمغرب، وما بينهما من الهند والسند والصين واليمن والحجاز والحبشة والسودان والشام والروم وديار بكر وجزائر البحار وما في الأرض من مشاهير الأنهار، كسيحون وجيحون والنيل والفرات، وأرسل رسله إلى أقصى العمار ، ليأتوه بحقيقة الأخبار ، فرجعوا وأخبروه بأن سائر الناس أذعنت لطاعته ، وجميع الجبابرة خضعت لهيبته ، وقد عمهم بالفضل والامتنان ، وأشاع بينهم العدل والأمان ، لأنه كان عظيم الشأن ، وحملت إليه الهدايا من كل مكان ، وجبي إليه خراج الأرض في طولها والعرض"[ص١٣٩]

ولا تكتمل صورة البطل الملك في الخيال الشعبي العربي بهذه السطوة العسكرية والسياسية والاقتصادية فقط بل لا بد من الإشارة جانب بطولي آخر حتى تكتمل عناصر البطولة الحقة، وهي الفحولة الذكورية ،ولذلك تروي شهرزاد أن الملك النعمان كان له أربع زوجات بالكتاب والسنة، وفي الوقت نفسه كان له ثلاثمائة وستون سرية ،من سائر الأجناس، على عدد أيام السنة، وكان قد بنى اثني عشر قصرًا، وفي كل قصر ثلاثون مقصورة، وأفرد لكل واحدة منهن مقصورة ، وهو يبيت عند كل جارية ليلة واحدة في السنة.

هكذا كان الملك النعمان وهكذا كانت دولته قوة وسطوة ونفوذًا وثراءً، لكن بذور الضعف دائمًا ما تكمن في ذروة القوة، وعوامل النقص موكلة بذروة

التمام،فعلى المستوى الشخصي كانت هناك مشكلة في حياة الملك النعمان تفاقمت فيما بعد إلى مشاكل كبيرة وهي أنه رغم كل الزوجات والسراري فإنه لم ينجب إلا ولدًا واحدًا اسمه "شركان"، وهذه المشكلة تشابكت مع مشكلة أخرى على المستوى القومي وهي أن هناك منطقتين لم يمتد إليهما سلطان الملك النعمان، بل كانا وأهلهما مصدر تهديد وقلق لدولته وسلطانه ،لأنهما كانا يتربصان به ويضمران لدولته الشر، وأهل هاتين المنطقتين على دين غير دينه، ولهم عادات غير عادات بلاده، وثقافة غير ثقافتها، والمنطقتان هما مملكة البلاد اليونانية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، وصاحبها يسمى إفريدون، ومملكة البلاد الرومية المسيحية وطليعتها ملك يسمى حردوب صاحب مدينة قيسارية، من هاتين البذرتين تنمو أشواك الصراع وتندفع الأحداث التي يكون وقودها الجيل الثاني والثالث بعد ذلك.

والشرارة الأولى التي أوقدت هذا الصراع في الجيل الثاني أشعلها الملك النعمان نفسه، سواءً بالنسبة للصراع الداخلي في أسرة الملك، أم بالنسبة للصراع الخارجي بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، أو بين الدولة البيزنطية والدولة الرومية، وتكمن هذه الشرارة في أن الملك عمر النعمان كانت عنده جارية رومية جميلة فائقة الجمال والأدب اسمها صفية، وأنها حملت من الملك النعمان، وولدت له توأمًا ، ولدًا سماه ضوالمكان وبنتًا سماها نزهة الزمان.

أما الصراع الداخلي الذي نشب نتيجة لهذه الحادثة فهو أن الأمير شركان الابن الأكبر للملك النعمان لما علم بولادة ولد آخر لوالده الملك النعمان من الجارية صفية دبت الغيرة في قلبه ، وخاف على مستقبل ولاية عهده،

وظهر ذلك للملك النعمان فأصبح الأمر مشكلة بالنسبة له وتهدد أسرته ولم يجد الملك لهذه المشكلة حلًا إلا أن ينصب ابنه شركان واليًا على دمشق، ليطمئنه على مستقبله وليكون في مواجهة أي عدوان من قبل الدولة البيزنطية أو الدولة الرومية لما عهده من شجاعته ، وفي الوقت نفسه ليبعده عن أخويه في بغداد.

وأما الصراع الخارجي فيكمن في حقيقة الجارية صفية نفسها تلك الجارية التي أنجبت للملك ابنه وبنته، فلم يكن الملك عمر النعمان يعرف أن هذه الجارية التي تسمى صفية التي أنجب منها ولده ضو المكان وابنته نزهة الزمان هي ابنة الملك إفريدون عدوه اللدود، فقد كانت هذه الأميرة قد أسرت في حرب بين الدولة البيزنطية والدولة الرومية، فأهداها صاحب قيسارية إلى الملك عمر النعمان مع هدايا أخرى ولم يكن يعرف صاحب قيسارية نفسه أنها ابنة الملك إفريدون، لأنها كتمت ذلك عليه وعلي الملك النعمان بل أحبت الملك النعمان، وطاب لها المقام زوجة له وأمًا لأولاده، وقد أدى أسر هذه الأميرة إلى نشوب نزاع عسكري بين الدولتين المسيحيتين ،بيزنطة وروما، مما أدى إلى إرسال إفريدون رسلًا إلى الملك عمر النعمان يطلب مساعدته على حرب ملك قيسارية الروماني، ثم يتبين بعد ذلك أنها مجرد مؤامرة من إفريدون للإيقاع بجيش المسلمين بقيادة شركان.

وفي هذه المرحلة التي يتبوأ فيا الجيل الثاني مقاليد الأمور، حدثت مغامرات وحروب بين الجيوش الإسلامية والجيوش البيزنطية والرومية، وانتهت بأن ابنة الملك حردوب المسماة إبريزة أعجبت بشجاعة الأمير شر كان ابن الملك النعمان عندما التقيا صدفة فأسلمت، وذهبت معه إلى بغداد، لكن الملك النعمان لما رأى جمالها الفائق فتن بها واحتال عليها حتى خدرها بأقراص البنج

وقضى وطره منها ،ثم تهرب إبريزة بعد أن حملت منه، وتستعين في هروبها بأحد العبيد، لكن هذا العبد يقتلها وهي في الطريق إلى القسطنطينية بعد أن تكون قد وضعت في الطريق ولدًا من النعمان يربيه أبوها حردوب ويعده ابنًا له.

وفي هذه المرحلة تنتقم أم حردوب المسماة "سواهي ذات الدواهي" من الملك النعمان فتحتال حتى تذهب إلى بغداد متخفية وتقتله بالسم، ثم تنتقم من ابنه شركان وتذبحه وهي متخفية في زي عابد زاهد، ويصبح ضو المكان ملكًا خلفًا لولده عمر النعمان، ويتزوج وينجب ولدًا اسمه "كان ما كان" ويكبر "كان ما كان" ويقود جيوش والده ويذهب لمحاصرة القسطنطينية للانتقام لمقتل جده عمر النعمان وعمه شركان، فيقع هو وأبوه ضو المكان في الأسر، ثم تتكشف الحقيقة أخيرًا، وهي أن الامبراطور الجديد الذي خلف الملك حردوب على ملك القسطنطينية ليس إلا ابن عمر النعمان الذي حملت به إبريزة ابنة حردوب وهربت وماتت في الطريق، عندئذ تبينت الحقيقة وهي أن ملك القسطنطينية ليس إلا أخًا لملك بغداد، وأن ملك بغداد ليس إلا حفيدًا لملك القسطنطيمنية، في ظل هذه الأخوة ولنسب عم السلام ورفعت راية العدل وأنصف المظلوم من الظالم وعم الخير البلاد والعباد.

في هذه الحكاية إشارات كثيرة تدل على أنها أضيفت إلى ألف ليلة في القرن الخامس الهجري، وبالتحديد بعد استقرار الحملات الصليبية في بعض المدن الساحلية الفلسطينية، وبخاصة مدينة قيسارية، كما أن فيها إشارات تدل على أنها أضيفت في ظل الحكم الفاطمي في مصر والشام ،ذلك الحكم الذي اشتهر بمهادنته للصليبيين، كما أننا نلمس في الحكاية تسليمًا بأن قيسارية هذه

جزء من الدولة الرومية، وهذا ما لم يكن يقبله الذوق الشعبي العربي قبل هذا التاريخ أو الذي نشأ بعد ذلك مع صعود نجم الدولة الأيوبية ثم المملوكية، هذا العصر الذي كان له أدبيات متناقضة مع هذا النمط، كما أن بقاء مثل هذه الحكاية في التراث الشعبي المصري وتذوقها حتى الآن تدل على أن الأيوبيين لم يستطيعوا استئصال جميع الأدبيات الفاطمية من الوجدان الشعبي، وأن هذه الأدبيات بل والعقائد الفاطمية ظلت كامنة حتى العصر المملوكي والعثماني بل الحديث.

من جانب آخر فإن الرؤية التي يستخدمها راوي الحكاية تعبر تعبيرًا صادقًا عن الموقف الحضاري الإسلامي المتسامح تجاه علاقته مع الآخر المسيحي، فالذي يقرأ الحكاية حتى آخرها يستنتج أن الراوي يريد أن يقول: إن هؤلاء الناس الذين يسكنون الدولة البيزنطية والدولة الرومانية أناس أشرار يملأ قلوبهم المكر والدسيسة وحب الانتقام من المسلمين، لكنهم في النهاية بشر، فهم إخواننا في البشرية ، ويمكن أن يكونوا في يوم من الأيام إخوانًا لنا إذا ما تخلوا عن شرهم وعداوتهم، فهم أعداؤنا لكن لا يمكن الانفصال عنهم، لأننا جميعًا بشر ولأننا جيران ،فهم عدو ما من صداقته بد ،وهذا يتلاءم مع روح العقيدة الإسلامية، فالقرآن الكريم في سورة الفلق أمرنا أن تستعيذ به من شر ما خلق وليس من ما خلق ، وأن نستعيذ من شر السحرة وليس من السحرة أنفسهم باعتبارهم بشرًا، أمرنا بأن نحارب الشر وليس ذوات الأشرار، ومن العجيب أن هذه الرؤية المتسامحة تستقر في الوجدان الشعبي المسلم قبل عدة سنوات فقط من موجات التطهير العرقي التي مورست ضد المسلمين واليهود في إسبانيا من خلال محاكم التفتيش الشهيرة والتي أذكت جذوتها أدبيات شعبية غربية تتسم

بروح الكراهية والانتقام والاستئصال العرقي لكل ما هو غير مسيحي، هذا هو الفارق في الرؤية الثقافية للآخر بين الشرق والغرب.

نعم رؤية الآخر الغربي هنا متحيزة ثقافيًا ولكنها ليست عنصرية ولا انتقامية ،بخلاف رؤية الآخر الشرقي في التراث المسيحي والغرب في القرون الوسطى، فصورة الآخر المسيحي التي يرسمها الراوي في هذه الحكاية صورة قبيحة ومكروهة ومعادية، لكن الراوي لا يحرض على مثلها ولا يدعو إلى استئصالها.

هذه الرؤية لا تأتي في الحكاية على هيئة مجموعة من الآراء الخطابية المباشرة بل في أشكال فنية ، فكون زوجة الملك عمر النعمان وأم ولده الذي أصبح ملكًا بعد ذلك على المسلمين كونها ابنة ملك القسطنطينية استعارة ثقافية دالة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ملك القسطنطينية الجديد وكونه ابنًا لعمر النعمان استعارة ثقافية أيضًا، وهما معًا يشكلان مفارقة ثقافية وإيقاعًا سرديًا يشبه السجع في الشعر، لكنه إيقاع ثقافي أيضًا وليس لغويًا، ويتمثل هذا الإيقاع في كون ابن بنت ملك القسطنطينية ملكًا في بغداد، وكون ابن ملك بغداد ملكًا في القسطنطينية.

كما يستخدم القاص الشعبي تقنية ثقافية أخرى تجسم هذه الرؤية وهي استخدام النماذج البشرية باعتبارها نماذج ثقافية ، فهناك نموذج الآخر المتعصب في أقبح صوره وهونموذج المرأة العجوز الشريرة سواهي الملقبة بذات الدواهي أم ملك القسطنطينية، وقد انتهت حياتها بأن أقيم عليها حد القصاص جزاءً على ارتكابها جريمتي قتل عمدًا، ونموذج الآخر المرن الذي يمكن فهمه وتفهيمه ويتمثل في الأميرة إبريزة التي تخلت عن عرشها وعقيدتها وأهلها من

أجل الحب، ونموذج الآخر الودود المسالم وهو صفية رمز التواصل بين الثقافتين والحضارتين الإسلامية والبيزنطية ، فقد ذكر الراوي أن صفية هي التي طلبت من الملك النعمان أن يكون لها ولد من صلبه.

ولا يقتصر استخدام النماذج على تصوير الآخر البيزنطي، بل يستخدمه القاص لتصوير الشرائح الثقافية في الجانب العربي الإسلامي، أي تصوير الكيانات الثقافية داخل المجتمع فهناك نموذج البدوي الجلف الخائن ، ونموذج العامل الفقير الطيب الكريم ، ونموذج التاجر الجشع، ونموذج العبد الخسيس، ونموذج الأمير الطموح ، ونموذج رجل الحاشية المتسلق.

وكل نموذج من هذه النماذج يمثل شريحة ثقافية في المجتمع ، ولا يكتفي القاص بتصوير كل نموذج من هذه النماذج تصويرًا محايدًا، بل يضمن الوصف نقدًا ثقافيًا للطبقة التي ينتمي إليها ، وأحيانًا يدينها ويظهر موقفًا منها، ويعممه على كل من ينتمي إليها، سواء أكانت نماذج تمثل شخصيات محببة أم غير محببة، فالأمراء والملوك المسلمون لا عيب فيهم إلا أنهم طيبو القلب يمكن خداعهم، وأنهم يضعفون أمام الجنس اللطيف، والتجار ماديون يسكرهم المال، والبدو مخاتلون لا أمان لهم، كما أن القاص ينتقد طوائف أخرى بشكل غير مباشر ، مثل رجال الدين الذين يظهرون في خرق المتصوفة والزهاد، فهو يشكك في تدينهم ويحذر من أنهم في حقيقة أمرهم ربما يكونون جواسيس، فذات الدواهي إنما فعلت ما فعلت من مصائب وهي متخفية في زي عابد زاهد.

ومن التقنيات التي استخدمها القاص الشعبي في هذه الحكاية اللغة الانفعالية في السرد والتصوير الملحمي للأحداث والمبالغة في الوصف واستخدام المصكوكات التعبيرية واستخدام المقطوعات الشعرية عند تأزم المواقف ،فهو عندما يصف ذات الدواهي يقول عنها :" لها فم أبخر وجفن

أحمر وخد أصفر بوجه أغبش وطرف أعمش وجسم أجرب وشعر أشهب وظهر أحدب ولون حائل ومخاط سائل"[ص ٢٠٦] كما يستخدم صورًا بلاغية جميلة عند وصف المعارك تشبه الصور التي يستخدمها هوميروس في وصف ما ينتاب الأبطال في المعارك الحربية ، مثل قوله :" صار أنفه بين قدميه "[ص٢٠٥] وقوله: "نفض الخوف جراب معدته"[٢٠٦] وقوله: "فوقوا سهام شرهم" [ص٢١٢] هذه العبارات وأمثالها يمكن أن تكون موضوعًا لدراسة شعرية السرد في ألف ليلة وليلة.

ومن التقنيات التي يستخدمها القاص في هذه الحكاية الصراع بين القيم الثقافية ، فهذه الحكاية وغيرها من أدبيات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي لا تصور الحروب الصليبية التي دارت رحاها بين الجانبين منذ ظهور الإسلام حتى اليوم على أنها مجرد معارك حربية يدور الصراع فيها على المال والأرض والسلاح فقط بل على أنها حروب ثقافية في المحل الأول، صراع بين القيم وبين الرؤى وبين العادات والتقاليد، وهذا ما برز واضحًا في هذه الحكاية، فالقيم الثقافية الإسلامية والعربية هي التي تتحكم في سلوك الشخصيات ومصائرها في الشرق كما أن القيم الثقافية هي التي تحكم سلوك الشخصيات في لغرب، وهي الأساس في الصراع هنا وهناك رغم أن بعض الشخصيات احيانًا لها نقاط ضعف تتحلل خلالها من هذه القيم، وذلك مثل تصرف الملك النعمان غير اللائق مع إبريزة، ومثل انسياق شركان غير العقلاني وراء شهواته أثناء غزواته في البلاد البيزنطية.

على وجه الإجمال فإن هذه الحكاية تعد نموذجًا جيدًا لأدب الصراع الثقافي بين الشرق والغرب ، ذلك الأدب الذي امتد منذ الحروب الصليبية حتى

اليوم ، لكنها تنفرد بأنها تصور الجانب الإنساني المتسامح من هذا الصراع، الجانب الذي نطلق عليه في عصرنا هذا حوار الحضارات ،وليس صراع الحضارات.